كريستوف

بولتانسكي

أشباح العنبر

الرّقم ١٢

دار الجديد
Dar al Jadeed

أصدقاء لقمان سليم
FRIENDS OF LOKMAN SLIM

مؤسسة لقمان سليم

أمم للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

صـدر هـذا التحقيـق يـوم ٣ تمّـوز ٢٠٢٣ في مجلـة أمنسـتي إنترناشـونال **لا كرونيـك** . اسـتُعيد في ذكـرى انفجـار مرفـأ بـيروت عـبر **الأوريـان لوجـور** و**الأوريـان تـوداي** يـوم ٤ آب ٢٠٢٣ . تسـتعيده دار الجديـد يـوم ٣ شـباط ٢٠٢٤ في ذكـرى اغتيـال لقـمان سـليم .

©*ChristopheBoltanski.*©*La Chronique, Amnesty France*

©*Orient-le jour*©*Orient-Today*©*Dar-Al-Jadeed*

w.w.w.Lokmanslim.org | w.w.w.dar-al-jadeed.com

w.w.w. Lokmanslimfoundation.org

أشباح العنبر الرقم ١٢

عصر ٤ آب ٢٠٢٠، على إثر انفجارِ أطنانٍ من نيترات الأمونيوم المخزّنة في مرفئها، عاشتْ بيروت لحظة دمارٍ شامل خلَّفَ أكثر من مئتين وعشرين قتيلًا وسبعة آلاف جريح، إلى جانب أضرارٍ تفوق الوصف. مع تعثّر التحقيق، أثارت سلسلة الاغتيالات التي وقعت تباعًا شكوكًا تُفضي ـ إن هي جُمعت، بحسب ما حاول كريستوف بولتانسكي فِعله ـ إلى عقلنة مَجاهِل هذا اللغز العملاق.

من باب الارتجال وقلّة الحيلة، أضحى تمثالُ المُهاجر الواقع على الطريق السريع، المشرفِ على مرفأ بيروت، نقطة تجمُّعِ عائلاتِ مَن قَضَوا ذلك المساء. على الكتل الإسمنتية رسوماتٌ بسيطة وشعارات اتهاميّة، وصور ضحايا كرة النار، تلك التي تركت بصماتها على مباني المدينة.

ببطء تتحرّك السيّارات؛ إذ الازدحام المروريّ من ميزات المدينة. وهكذا يتاح للمارِّ رؤيةُ الواقع، لا التأمّل في صروف الحياة والموت، مثل: أكوام الخردة المعدنية، والسيارات المتفحمة، وحطام السفن، والرافعات المكسّرة، وأشلاء عنبر الحبوب؛ عند رصيف العنبر المشؤوم مشهدُ حفرة هائلة ممتلئة بمياه موحلة. من بعيد، يرى المارُّ المَوقع حيث غرقت السفينة «روسوس»، سفينة المأساة.

فسيفساء، حُطامٌ مؤلّفٌ من ألف قطعة وقطعة، لغزٌ ، هكذا يبدو مرفأ

بـيروت حقـلًا مـن الخـراب، يحـاكي العدالـة المشـلولة. التحقيـق يتعـثّر، بسـبب كلّ الإجـراءات التـي عطّلـت عمـل القـاضي المسـؤول عـن التحقيـق طـارق بيطـار. فبعـد انقضـاء ثـلاث سـنوات، مـا زال يُعَـدُّ أحـد أكـبر الانفجـارات غـير النوويـة في التاريـخ بـلا تفسـير: ٢١٨ قتيـلًا، وأكـثر مـن ٦٥٠٠ جريـح، و٧٧ ألـف شـقة مدمـرة، ثـم لا تبريـر ولا محاكمـة في الأفـق، حتـى ولا متّهـم ثانـويّ خلـف القضبـان لرفـع العتـب. جريمـة مهولـة تضـاف إلى موسـوعة اللاعقـاب، تلـك التـي يحفـل بهـا البلـد الصغـير.

صحفيـون ومحامـون وناشـطون يعملـون عـلى كـسر هـذا الجـدار، جـدار الصمـت. يحاولـون أن يفهمـوا كيـف لشـحنة مـن المتفجـرات أن تصـلَ إلى بـيروت، وتُـترك في عنـبر مـدّة سـت سـنوات، قبـل أن تنفجـرَ مخلّفـة غيمـة عملاقـة كقـوس مـن الضـوء! هـؤلاء يجتهـدون للإمسـاك بطـرف خيـط قـد يفـضي إلى بعـض الحقيقـة... فيسـبرون أغـوار شركات وهميـة، ويبحثـون في عمليـات الاحتيـال، ويغربلـون الأكاذيـب. «إنهـا ورشـة قـد تسـتغرق عمـرًا» تقـول المحاميـة زينـة واكيـم مـن جمعيّـة «المسـاءلة الآن»، التـي تحـارب الإفـلات مـن العقـاب في لبنـان. «الظاهـرُ خـدّاعٌ في هـذه القضيّـة، أمّـا الباطـنُ فيتطلـب تحقيقـات معقّـدة وخطـيرة».

جَمعُ الفسيفساء

منـذ البدايـة، ولتجنّـب الضيـاع في متاهـات هـذا الملـفّ، قـدّم لقـمان سـليم، قائـد الـرأي والنـاشر والمترجـم والمخـرج، خـلال مقابلـة عـبر محطّـة الحـدث التلفزيونيّـة، يـوم ١٥ كانـون الثـاني ٢٠٢١، قراءتـه[١]: «نحـن أمـام فسيفسـاء»، لجمـع أحجارهـا وتفاصيلهـا، مـن المستحسـن النظـر إلى المشـهد ككلّ. إنْ أعدنـا تأليـف هـذا الـكلّ سـتتظهّر أمامنـا الصـورة بوضـوح. سـارع السياسـيّون اللبنانيـون إلى بـثّ سرديّتهـم: «إنّـه الإهـمال». أمّـا لقـمان سـليم فتحـدّث عـن: «جريمـة حـرب» بتوقيـع روسـيا وسـوريا وحـزب اللـه.

بعـد عشريـن يومًـا مـن مقابلتـه هـذه، في صبـاح الرابـع مـن شـباط ٢٠٢١، عُـثر عليـه مقتـولًا بسـتّ رصاصـات داخـل سـيّارته.

يقـع نصـبُ لقـمان التـذكاري المحـاط بالنباتـات والأزهـار، في قلـب حديقـة البيـت العائـلي الواقـع في سـاحل المـتن الجنـوبيّ. للوصـول إلى المـكان، عبرنـا حاجـزًا، ثـم ثانيًـا. الأعـلام الصُّفْـر أعـلامُ حزب اللـه، تُرفـرف وتُظلّـلُ صـور الشـهداء العملاقـة المغطِّيَـة واجهـات المبـاني. وسـط هذه المشـهديّة العسـكريّة البروباغنديّـة، تبـدو «فيـلا سـليم» واحـة لا علاقـة لهـا بـكلّ مـا حولهـا. الأبواب مشرعـةٌ دومًـا مـن أيّـام الوالـد محسـن المحامـي، النائـب المعـروف بمَواقفـه الوطنيّـة ودفاعـه عـن الدسـتور وحقـوق الإنسـان. أمّـا لقـمان الـذي لم يغـادر معقلـه حـارة حريـك وناسَـهُ، فقـد عـارض حتّـى النفـس الأخـير حـزب السـلاح.

مُحاطـةً بعـدد لا يحـصى مـن الكتـب والملفـات الخاصـة بزوجهـا، تكافـح المخرجـة الألمانيـة ـ اللبنانيـة مونيـكا بورغـمان، مـن أجـل معرفـة الحقيقـة:

(١) أعدموه، حديث لقمان سليم الذي أفاض كأس «المايسترو»، كرّاس صدر يوم ٣ آب ٢٠٢٣، دار الجديد. انظر: w.w.w.dar-al-jadeed.com w.w.w.lokmanslim.org w.w.w.lokmanslimfoundation.org

«مقابلتـه أحدثـت دويًّـا. لقـد عـرض الوقائـع بطريقـة منطقيـة. قـال لـه مَـن أصغـى إليـه تلـك الليلـة: لقـد تماديـت، لم تكـن المـرّة الأولى. ففـي أكـثر المواضيـع حساسـيّة عـبّر عَـبْر الإعـلام عـن رأيـه بشـجاعة».

شـقيقة لقـمان، رشـا الأمـير، التـي أسـس معهـا دار الجديـد للنـشر، تعذبهـا الشـكوك عينهـا: «كان عنيـدًا. داود ضـد جالـوت. قلـتُ لـه مـرارًا: كلامـك يسـتثيرهم، هـم يتباهـون بصواريخهـم، هـم قتلـة، وأنـت مواطـن أعـزل. أظـنّ أن مقابلـة «النيـترات» هـي القشـة التـي قصمـت ظهـر بعيرهـم. بيـد أنّ في جعبـة القتلـة مآخـذ كثـيرة أخـرى جعلتهـم يُقْدِمـون».

حين هُمس لي:
«كن دبلوماسيًّا، فنحن نخاطر بحياتنا»

اغتيـال لقـمان سـليم قـد لا ينفصـل عـن اغتيـالات أخـرى. فالجرائـم الكـبرى زلازل تتبعهـا بـلا ريـب هـزّات ارتداديـة. بعـد انفجـار المرفـأ وقعـتْ عـدّة اغتيـالات نفّذهـا عـلى مـا يبـدو محترفـون، تلتهـا تحقيقـات لم تُفـضِ إلى نتائـج قضائيـة تُذكَـر، فأُغلِقـت الملفّـات عـلى عجـلٍ بغيـاب الدليـل، وبتغييـب المشـتبه بهـم.

مـا مـن جامـع مشـترك في الظاهـر بـين سلسـلة الاغتيـالات التـي تلـت التفجير، سـوى أنّهـا عـلى صلـة بشـكلٍ أو بِآخَـر بـه. لمـاذا جـرى قتـلُ مَـن قُتـل؟ هـل بسـبب مناصـب شـغلوها خوّلَتهـم الاطـلاع عـلى المحظـور؟ وهـل كان مـا يعرفونـه يهـدد شريعـة الصمـت المافياويّـة؟ وهـل كانـت شـهاداتهم تُسـهّل تجميـع قطـع الفسيفسـاء لفـكّ أسرار هـذا اللغـز؟ كانـت المـرّة الأولى التـي ـ عـلى خـوفٍ ـ وافـق فيهـا أصدقـاء المغدوريـن وأقاربهـم، شريطـة عـدم البـوح

بهويّاتهـم، عـلى التحـدث إلينـا. قـال لي أحدهـم: «كـن دبلوماسـيًّا، فنحـن نخاطـر بحياتنـا».

رسالة العقيد جوزيف سكاف

٢١ شباط ٢٠١٤

قبـل أن نـسرد قصـص هـذه الاغتيـالات، لا بـد مـن التذكـير بوفاةٍ حامـت حولها الشـبهات، ووقـع ضحيَّتَهـا قبل حـدوث الكارثـة أحدُ موظّفـي الجمارك.

يـرأس العقيـد جوزيـف سـكاف في مرفـأ بـيروت شُـعْبَة تتبُّـعِ البضائـع غـير المشروعـة، ومكافحـة تبيِيـضِ الأمـوال. في ٢١ شـباط ٢٠١٤، نبَّـه رؤسـاءه إلى أنّ الباخـرة «روسـوس» الراسـية في المرفـأ منـذ أشـهر ثلاثـة تُشـكّل خطـرًا عـلى: «السـلامة العامـة، وذلـك لاحتوائهـا عـلى نيـترات الأمونيـوم، وهي مادة شـديدة الخطـورة وقابلـة للانفجـار». أوصى في رسـالته المكتوبـة بخـط اليـد بنقلهـا إلى مدخـل المرفـأ، مـن جهـة كاسر المـوج، ووضْعِهـا تحـت المراقبـة.

«قَبْلـه، لم يـأت أيّ مسـؤول عـلى ذكـر هـذه الكميّـة مـن النيـترات» هـذا مـا يؤكّـده أحـد أشـهر الصحافيـين الاسـتقصائيين في لبنـان، ريـاض قبيـسي، مـن محطـة تلفزيـون الجديـد.

اشـتبه العقيـد بعمليّـة احتياليّـة. فمـن الغريـب أن ترسـو سـفينة شـحن كلّ هـذه المـدّة في مرفـأ. لـذا، طالـب في رسـالته بـأن تُنقـل مـن مكانهـا.

مـن يملـك «روسـوس»؟ وكيـف وصلـت السـفينة إلى بـيروت؟ بنـاءً عـلى شـهادة قبطانهـا، تعـود ملكيّـة السـفينة إلى رجـل أعـمال روسي، مُـدان بسرقـات متكـرّرة، ولا تُعـرف عنـه أيّـة خـبرة بمضـمار الشـحن البحـريّ، واسـمه إيغـور غريشوشـكين. انطلقـت السـفينة يـوم ٢٧ أيلـول ٢٠١٣ مـن مرفـأ باتومـي

(جورجيا) على البحر الأسود، وكانت متجهة إلى ميناء بيرا في موزمبيق، وعلى متنها ٢٧٥٠ طنًّا من نيترات الأمونيوم، من إنتاج مَصْنعٍ كيميائيٍّ جورجيّ «روستافي أزوت»، بهدف تصديرها إلى شركة خاصة «فابريكا دي إكزبلوزيفو دي موزمبيق».

بسبب ديونه المتراكمة، قام مالك السفينة بتحويل مسارها إلى بيروت من أجل تحميلها شحنةً إضافيّة، وذلك لجمع المبلغ اللازم لعبورها قناة السويس. لكن الشحنة الإضافيّة (أيِ الآلات الخاصّة بالدراسة الزلزالية) ثقيلةٌ جدًّا. أثناء التحميل في ٢٥ تشرين الثاني تضرّرت السفينة، وأعلنت سلطات الميناء أنها غير صالحة للملاحة، وقامت بإصدار أمر بمنعها من السفر، وأمرت بمصادرتها بعد شكاوى سبَبُها عدم سداد الديون. انتهز إيجور جريتشوشكين الفرصة واختفى عن الأنظار. جرى تداول هذه القصة على نطاق واسع، وهي منسوجة من أباطيل.

بعد نقله إلى مركز في المطار، لم يتتبّع العقيد سكاف موضوع السفينة هذا، ولم يُرَدّ بالطبع على رسالته التي ظلّت في الأدراج، ولم تصل إلى من وُجّهت إليهم. لو لم يُنقل هذا الضابط إلى مركز آخر، فهل كان في إمكانه أن يمنع الكارثة؟ يُزعم أنّه أسَرّ لأخيه: «لن نسمح لهم بتفريغ هذه الحمولة».

تتبدّل استخدامات نيترات الأمونيوم بحسب ما يحتويه من النيتروجين. فإنِ احتوى على أقل من ٣٣,٥٪، يُستخدم سمادًا معروفًا على نطاق واسع. وإن تجاوز ذلك الرقم، يُستخدم في صناعة المتفجرات. ومع ذلك، فإن القانون اللبناني، كما هو الحال في أي بلد آخر، يحظّر استيراد هذه المادّة للاستخدام العسكري دون تصريح خاص. بنسبة ٣٤,٧٪ يجري استخدام المادّة البيضاء التي حُمّلت في السفينة لصناعة القنابل.

في الوثائق الأولى (القائمة الموحدة، بيان الوصول) المرسَلة إلى الجمارك وإدارة

الموانئ في لبنان، لا شيء يدل على نوعيّة البضاعة. فالرسائل المتبادلة بين مختلف الهيئات الجمركيّة لا تحدّد طبيعتها. بيد أنّ السلطات قلقة بشأن تفريغ السفينة المهددة بالغرق، كما زُعم.

في ٢٧ حزيران ٢٠١٤، أمر القاضي بتخزين حمولتها في «مكان آمن»، وهو على ما يبدو لا يعرف نوع حمولتها. في كتاب وجّهته وزارة الأشغال العامة والنقل إلى القاضي يأتي ذكر: «مادة خطيرة تُهدد بتلويث مياه الميناء». «فلماذا لم يُذكر اسم المادة، أي نيترات الأمونيوم؟» يتساءل رياض قبيسي. أيّامذاك، كانت وزارة الأشغال من الإدارات المربحة، والتي يُرغب في الإشراف عليها. لذا، عُيّن على رأسها غازي زعيتر وزيرًا، وهو القريب من زعيم حركة أمل، وحليف حزب الله.

هكذا، جرى تفريغ محتويات السفينة على عجل، من ليلة ٢٢ إلى ٢٣ تشرين الأوّل ٢٠١٤، وجرى التخزين في العنبر رقم ١٢ المخصص للمواد الخطرة... على إثر ذلك، طوى النسيان قصّة السفينة ومحتوياتها.

بعد تفريغ الباخرة بعامين، تقاعد مطلق الإنذار، العقيد جوزيف سكاف، عن عمر يناهز ٥٦ عامًا. تَرشَّح بصفة مستقلٍّ للانتخابات النيابيّة.

وفي ٤ آذار ٢٠١٧، بلَغَت الساعة الثالثة فجرًا، ولم يعُدْ بعدُ إلى شقته في شمال بيروت، من عشاء كان قد دعي اليه. حاولت زوجته الاتصال به هاتفيًّا دون جدوى. قلقت.

طلبَتْ من صديق أن يتفقّده، فوجد سيارته الرينج روفر متوقفة عند مدخل مبنًى يضمّ شقّة يستعملها أحيانًا، والمصابيح الأمامية مضاءة، وصندوق السيارة مفتوح. حين رآه على بعد ١.٨٠ مترًا جثّة هامدة بذراعين على شكل صليب، قرب المنحدر المؤدي إلى موقف السيارات تحت الأرض صرخ الصديق: «جوزيف!». رأى جمجمته محطّمة، وعينيه منتفختين، وآثار كدمات على اليدين والركبتين، ثمّ تَبيّن أنّ ضلعًا من ضلوعه قد كُسر، كما لو أنّه تَقاتل مع من اعتدى عليه. بحسب التشريح،

لا سـبَبَ واضحًـا لسـقوطه ووفاتـه، ولا نوبـةٌ قلبيـة أو سـكتة دماغيـة، ولا كحـول في الـدم. عـزا التقريـر الطبـي الوفـاة إلى نزيـف في المـخ، دون الخـوض في مزيـد مـن الشروحـات. خلصـت الشرطـة إلى أنَّ حادثًـا تسـبّب بموتـه. «لم يَحْمـوا مـسرح الجريمـة، ولم يسـتجوبوا أحـدًا. لقـد أرادوا إغـلاق القضيـة في أسرع وقـت ممكـن». أمّـا الطبيـب الشرعـي الـذي عينتـه الأسرة، فقـد اسـتنتج أنّ سـكاف: «كان ضحيـة هجـوم وحـشي»، وقـد أصيـب في عينـه، وفي أسـفل القفـص الصـدري، قبـل أن يُدفـع ويَهـوِي.

تقرير الرائد جوزيف ندّاف

١ حزيران٢٠٢٠

يكـثر أعـداء ضبّـاط الجـمارك في مرفـأ بـيروت، الـذي يُطلَـق عليـه تهكّـمًا اسـم «مغـارة عـلي بابـا والأربعـين حرامـي». هـذا المرفـق الهـامُّ الواقـع في قلـب المدينـة، هـو صـورة عـن تعقيـدات «دولـة» باتـت لا تخفـي إخفاقاتهـا، وهـي المشـهورة بالاحتيـال والرشـاوى والعلاقـات المافياويّـة... أمّـا عـن الفضائـح، فحـدِّث ولا حـرج.

حـين ذُكّـر الرئيـس ميشـال عـون بواحـدٍ مـن وعـوده ـ وأغلبهـا خـابَ طبعًـا ـ أنشـأ مكتبًـا في العـام ٢٠١٩ لمحاربـة الفسـاد في منطقـة المرفـأ، وعهـد بـه إلى أمـن الدولـة، أحـد أجهـزة المخابـرات الأربعـة في البـلاد.

«أنيطـت بي مهمّـة جمـع مـا تَوافَـر مـن معلومـات عـن الاختلاسـات عـلى أنواعهـا» يقـول الرائـد جوزيـف نـدّاف، ويتابـع: «لقـد بدأنـا مـن الصفـر، بإمكانيّـات بشريّـة ومادّيـة ضئيلـة». فُـرِزَ لهـذا المكتـب مبنًـى جـرى تجديـده

جـوار محطّـة الحاويـات؛ أمّـا المبنـى القديـم قـرب الصوامـع فقـد تمّـت إزالتـه. أنفـارٌ بملابـس مدنيـة، مسـلّحون ببنـادق هجوميـة يوفّـرون حمايـة المـكان.

الرائـد في الخامسـة والثلاثـين، يرتـدي جينـزًا وقميـص بولـو، وهـو ثـاني مَـن نفخ في النفـير، وحـذّر مـن الأمونيـوم. تحذيراتـه لم يُؤخَـذ بهـا، لا بـل هـي ـ عـلى نقيـض مـا تَوقّـع ـ أشـعَلَت ردود فعـل مدمّـرة.

نهايـة عـام ٢٠١٩، أبلغـه «مصـدر» بوجـود مـادة نيـترات الأمونيـوم في العنـبر رقـم١٢. طلـب أن يُفتـح تحقيـقٌ في الأمـر، فعُرقـل التحقيـق. «لم أكـن أعـرف مـا هـذه المـادّة. كان العالَـم يعيـشُ عـلى وتـيرة الكوفيـد، ولم يـأت جـواب الخـبراء بالسرعـة المرجـوّة. قصـدتُ العنـبر، فُوجِئـت بأنـه لا حـارس أمـام البـاب، وأنّ أحـد الأبـواب الخلفيـة للمسـتودع محطّـم. وجـدتُ ثقبًـا في الجدار قطـره خمسـون سـنتيمترًا، رأيـت مـن خلالـه أكياسًـا مكدّسـة في حـال مـن الفـوضى. لـو دخـل عابـر سـبيل، لأخـذ منهـا مـا يشـاء» يقـول النـدّاف، ثـم يُضِيـف: «لم يُسـمح لي بالدخـول؛ إذ لسـتُ مـن الجـمارك أو مـن إدارة المرفـأ. اكتفيـتُ بتصويـر الحُـزَم الممزقـة ونِصـفِ الفارغـة مـن الخـارج. اقتـصر دوري عـلى إعـداد التقريـر».

كتـب الرائـد خمسـة تقاريـر رُفعـت إلى النيابـة العامـة. بتاريـخ ١ حزيـران ٢٠٢٠ كتـب في أحـد تقاريـره محـذّرًا: «إنَّ نيـترات الأمونيـوم في حـال نشـوب حريـق، ستَتسـبّب في انفجـار ضخـم لـه عواقـب كارثيـة عـلى مرفـأ بـيروت. ونخـشى أن تتـم سرقـة هـذه المـواد واسـتخدامها في صنـع المتفجـرات».

انتـشر تقريـره بـين بعـض النـاس، وخـشي مـن أن يُسرّب إلى وسـائل الإعـلام. في ٢٠ تمـوز، أرسـل أمـنُ الدولـة ملخصًـا للتقريـر حـول سرقـة المـواد وانفجارهـا إلى الرئيـس عـون ورئيـس الـوزراء حسـان ديـاب. عندمـا وصـل التقريـر إلى يـد النائـب العـام غسـان عويـدات، كان في إمكانـه طلـبُ نقْـلِ الأكيـاس إلى مـكان آمـن، أو ربمـا طلَـبُ إحصائهـا للتحقـق مـن عـدم فقـدان أيٍّ منهـا. لكنّـه اكتفـى بمطالبـة أصحـاب العلاقـة الفارّيـن بتعويضـات. في ٤ آب، حـوالي

الساعة الرابعة مساء، قام ٣ عمّال بتلحيم الباب المتضرر دون معرفة ما وراءه. هذا وموظف الميناء الذي كان من المفترض فيه أن يشرف على عملهم، لم يكن حاضرًا. بعد وقت طويل من مغادرتهم، في الساعة ٥.٥٤ مساءً، نشر أحد الشهود مقطع فيديو على تويتر، يَظهر فيه صعودُ دخان أسود كثيف فوق العنبر. وصل رجال الإطفاء إلى مكان الحادث بعد أربع دقائق. وقع الانفجار الأول في الساعة ٦.٠٨ مساءً، وتلاه بعد ثلاث عشرة ثانية انفجار أضخم.

في اليوم التالي، في حين كان السكان المذهولون يبحثون بين الأنقاض، نُشرت رسالة جوزيف سكاف الشهيرة عبر الإنترنت. اندهش أقرباؤه، وقال أحدهم: «لم يخبرنا بذلك قط، لكن الرسالة بلا ريب بخط يده». هم لا يعرفون مَن الذي سرّب هذه الوثيقة في هذا التوقيت؛ ما زاد شكوكهم. في ٨ آب كسر أحد أبناء ميشال صمت العائلة الطويل، وغرّد قائلًا: «في آذار ٢٠١٧، لم ينزلق والدي، لم يسقط. لقد تَعرّض لاعتداء وحشي. لقد قُتل والدي».

اغتيال عقيد الجمارك السابق منير أبو رجيلي

لغموضه، ولِما اكتنفه من شكوك، أثارَ اغتيال عقيد سابق في الجمارك ريبةَ مَن يتابع ما حدث يوم ٤ آب.

منير أبو رجيلي عقيد في الجمارك. تقاعد شابًّا، بحسب ما يحدث في هذه الأسلاك.

قرّر بناء بيت صيفي في قرطبا، القرية الجبلية المشرفة على جبيل. في ١ كانون الثاني ٢٠٢٠ صعد ليرى سير الأعمال. باغتَهُ ضبابٌ كثيف، فقرّر

أن يبيت ليلته هناك. صباحًا، قُطع الاتّصال الهاتفي به. قلقت زوجته، فقادت سيّارتها، ووصلت إلى البيت قيد الإنشاء، حيث وجدت زوجها في سريره مرتديًا منامةً دامية.

يقول سيمون كرم محامي الأسرة: «حطّم الجناة جمجمته، كسروا أسنانه». كم عدد القتلة؟ يرجِّح تقرير المعلومات أنّهم ثلاثة. واحدٌ ضربه بالعصا حتّى الموت، واثنان أمسكاه من كتفيه. لا بصمات، ولا أثر لهاتف مجهول في محيط البيت. أمّا الجارُ، فكان غائبًا. عملٌ محترف.

قاضي التحقيق حبّذ فرضيّة السرقة «غير الموفّقة». فبعد أن قلب «اللصوص القتلة» الفيلا رأسًا على عقب، غادروا فارغِي الوِفاض، اللهم إلّا مِن القتل! تَستنكر السيّدة ماغي زوجة أبو رجيلي هذه الرواية: «الخَزْنة لم تُلمس». ما الذي دفعهم إلى ارتكاب جريمتهم إذن؟ يقول المحامي: «جهاز معلوماتنا فعّالٌ إنِ اقتصر الأمر على سرقةٍ ما، إذ تُبيّن الوقائعُ أنّهم يقبضون على الجناة بسرعة. أمّا الجرائم السياسيّة، فمرتكبوها يضيعون في البراري!».

حين استفاقت ماغي أبو رجيلي من الصدمة، تواصلت مع أرملة جوزيف سكاف: «لقد قتلوا منيرًا، تمامًا كما قتلوا جوزيف!». كان الرجلان صديقَين، وكِلاهما عمل في المرفأ.

بعد اغتيال جوزيف بخمسة أشهر، تقاعد منير وهو في الخمسين. هل كان على علم برسالة زميله؟ «بالطبع» يقول أحد الأقارب. يضم أصابعه ويتظاهر بالكتابة، ويحدِّق إلى الفراغ، وكأنّه يخاطب الغيب هامسًا: «لقد كتباها معًا».

أيعني ذلك الهمس أن الرجلَين اللذَين «قضيا» في ظروف غامضة ومماثلة بفارق ثلاث سنوات، كانا أول من دقَّ ناقوس الخطر في العام ٢٠١٤؟

موجة العنف هذه، تُذكِّر بالاغتيالات التي ارتُكبت بعد اغتيال رئيس

الـوزراء الأسـبق رفيـق الحريـري عـام ٢٠٠٥. يومهـا قـرّر القاتـل التخلّـص مـن سياسـيّين وإعلاميـين. هـذه المـرة، تَخلّـص مـن العارفـين ببواطـن النيـترات.

صُوَر جو بجّاني

في ٢١ كانـون الثـاني ٢٠٢٠، تمـام السـاعة السـابعة صباحًـا، غـادر جـو بجـاني منزلـه. اعتـاد كل صبـاح أن يشـغّل مكيّـف الهـواء السـاخن في سـيّارته الجـي إم سي، وحـين تعتـدل حرارتهـا، يعـود إلى البيـت وينـادي بِنتَيـه كي يواكبهـما إلى مدرسـتهما، ثـمّ يتوجّـه إلى مكتبـه. جُـو في السادسـة والثلاثـين يعمـل في شركـة ألفـا للاتصـالات. يعيـشُ عـلى أطـراف بلـدة الكحالـة في منـزل مُطـلّ عـلى بـيروت، وكـما هـي الحـال في البيـوت المتطرفـة، زوّد مسـكنه بكاميـرات مراقبـة. بعـد وقـوع الجريمـة مبـاشرة، شـاهدَت شـعبةُ المعلومـات مـا سـجّلته الكاميـرات. هـذه الأفـلام سُرّبـت عـبر وسـائل التواصـل، وعرضتهـا محطّـة أل. ب. سي. ظهَـر فيهـا جـو وهـو يفتـح بـاب سـيّارته. بعـد عـشر ثـوانٍ ركـض نحـوه رجـل يرتـدي قبعـة سـوداء، وفي يـده مسـدس كاتـم للصـوت عـلى الأرجـح. فتـح القاتـل البـاب وأطلـق أربـع طلقـات. شريكـه يرتـدي خـوذة دراجـة ناريـة، ويحمـلُ صندوقًـا. فتّـش الجثـة، والْتَقَـط هاتـف القتيـل، ثـمّ أعـاد إغـلاق البـاب. هـرب القاتـلان. سـلكا منطقـة شـجريّة منحـدرة، سـبق لهـا أن احترقـت أكـثر مـن مـرّة. عـلى بعـد ٥٠ مـترًا كانـت درّاجـة ناريّـة بانتظارهـما.

بالـكاد أخفـوا وجوههـم. غطـى القاتـل أجـزاء مـن وجهـه بكمامـة تُسـتعمل للحمايـة مـن وبـاء الكوفيـد، أمّـا مُسـاعِده فاكتفـى بلبـس خـوذة الدرّاجـة، ولم يكلّـف خاطـره بالتقنّـع. يَعـرفُ المرتكبـون أنهـم ينفّـذون عمليّتهـم في منطقـة أمنيّـة، عـلى مقربـة مـن القـصر الرئـاسي في بعبـدا، ومـن وزارة الدفـاع

والثكنات. وجوههم ومَسار فرارهم موثّق لدى قِسم المعلومات. «فلماذا لم يَجْرِ التعرّف إليهم حتّى الساعة؟» يتساءل يوسف لحود، محامي عائلة البجاني. أغربُ ما في الرواية أنّ كاميرات المراقبة أضاعت وِجْهة سَيْرِهما حين تَوغّلا في الضاحية الجنوبية.

«مَن جو؟» تُكرِّر أمُّه أمل سؤالنا، وتحبس دموعها. «أيقتلون مَن لا أعداء له؟ أيقتلون من لم تستَهْوِهِ السياسة يومًا؟ منذ نعومة أظفاره وهو يحبّ العسكر. أمضى أوقات فراغه في تصوير الجنود والمَركبات المدرعة، وبنى علاقات جيدة بالجيش اللبناني الذي أصدر له بطاقةً صحفية. في المقابل، قدّم لهم صورًا دون أن يطلب مقابلًا. هل رأى شيئًا ينبغي له ألَّا يراه؟». يوم ١٤ آب ٢٠٢٠، نشر صورة على حسابه عبر تويتر، سرعان ما انتشرت بكثافة مع النصّ الذي رافقها: «نرى في الخلفيّة صوامع الحبوب والعنبر رقم ١٢، حيث وقع الانفجار».

تَذكُر زوجته نايلة هذه الواقعة: «سرعان ما أضحت هذه الصورة حديث الناس. لقد التقطها عام ٢٠١٧، يوم تَسلَّمَ الجيشُ اللبناني دباباتٍ أميركية». هل كان لديه أي شيء آخر في الأرشيف؟ «لقد واكب الجيش لتغطية مناسباته في المرفأ أكثر من مرّة. وهذه المناسبات لا يشارك فيها الدخلاء. هل صوّر أشياء محظورة؟». إنها لا تَعرف أكثر من ذلك.

صادَر جهازُ المعلومات الكاميرات، وأجهزةَ الكمبيوتر، ومفتاح اليو. أس. بي. وكاميرات المراقبة. «بعد أسبوعين، أعادوها وقد فُرّغت من المعلومات».

بعد عام من التحقيقات غير المثمرة، خرجت نايلة عن صمتها، وأجْرَت سلسلة من المقابلات. «لقد ألقيتُ اللوم على الجميع». استدعاني وزير الداخلية، «احذري» قال لها. «بنتاك يتيمتان اليوم، وأنا لا أستطيع حمايتك».

منـذ ذلـك الحـين، طلبـت نايلـة وبنتاهـا اللجـوء إلى فرنسـا. تتذكّـر غضـب زوجهـا جـو بعـد وقـوع الانفجـار: «لقـد كان غاضبًـا جـدًّا. قـال لي: لبنـان انتهـى. لنغـادر». في ١٨ آب، نـشر اقتباسًـا لجـورج أورويـل: «كلّـما ابتعـد مجتمـع مـا عـن الحقيقـة، زاد كرهـه لأولئـك الذيـن يقولونهـا». بعـد فـترة وجيـزة قـرّر العـزوف عـن العمـل مـع الجيـش. عِـدّة دول ـ كفرنسـا والولايـات المتحـدة ـ أجـرت تحقيقـات ميدانيـة بعـد الانفجـار. «هـل أراد مسـاعدتهم؟». كيـف؟ وهـل فعـل ذلـك؟ لا تَعـرف.

القاضي بيطار وعرقلة تحقيقه

جوزيـف سـكاف، ومنـير أبـو رجيـلي، وجـو بجـاني: ثلاثـة اغتيـالات مُلْغَـزة مرتبطـة بانفجـار المرفـأ. كـما دُفنـت هـذه الملفّـات، يُخـشى عـلى تحقيقـات القـاضي بيطـار مـن المصـير عينـه.

لِكشـف واحـدة مـن أكـثر القضايـا تعقيـدًا في تاريـخ البـلاد، لم يوضـع في تصرّف القـاضي سـوى مُعاونـين (كاتبـين)، وحاسـوب يتيـم. أولئـك الذيـن يهددهـم يشـنُّون عليـه حربًـا ضروسًـا: حمـلات كراهيـة مسـعورة، و٤٠ طلـبَ تَنَـحٍّ. وفي كل مـرة يعـود فيهـا ويسـتأنف تحقيقـه، يعُـودون إلى هجومهـم.

هـل يلجـأ إلى أقرانـه؟ إنْ فعـل يجدهـم مكبّلين مثلـه، ومحاصَريـن في مناورات إجرائيّـة خسيسـة. حـين يُصـدِر مذكـرات جلْـبٍ أو اعتقـال يـرى أن الشرطـة لا تطيعـه. هـل يتهـم النائـبَ العـام غسـان عويـدات؟ حـين أقْـدَمَ اتّهمـه الأخـير بـ«إسـاءة اسـتخدام السـلطة»، وأطلق سراح ١٧ شـخصًا من السـجن.

يأسَـفُ بـول نجّـار: «هـذه بـدع قانونيّـة تُشـيّب شـعر الغـراب». كـما في كل شـهر، تَظاهَـر مـع زوجتـه تريـسي وأهـل الضحايـا أمـام المحكمـة: «كنـا حـوالي

ثلاثين شخصًا. أعدادنا تتقلّص، ما يَحدث أفْقَد الناس الأمل».

تريسي وبول يعيشان في شقّة تُشرف على المرفأ والصوامع. يوم ٤ آب، فقدَا ابنتهما ألكسندرا (٣ سنوات)، عندما تحطمت نوافذ البهو. لم يأملا أن تُفضيَ التحقيقات إلى نتيجة تُذكر: «ما قيل لنا عن الانفجار هباء بهباء». هما وأهل الضحايا يطالبون بتشكيل بعثةٍ لِتَقصِّي الحقائق تحت رعاية مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة. «ما نريده هو إثبات الحقائق.أسئلتنا بلا جوابٍ حتّى اليوم». تريسي على قناعة، مثلها مثل العديد من سكان بيروت، بأنها سمعت صوت طائرة قبل الانفجار؛ ما يجعلها تشتبه بهجوم صاروخيّ». «إنّها الفرضية الإسرائيلية» يوضّح بول.

وهي فرضيّة استبعدها الخبراء الفرنسيون.

يوم ٦ آب ٢٠٢٠، أَرسلَت الدولةُ الفرنسيّة ١٥ عنصرًا من الشرطة العلمية والبوليس إلى بيروت، في إطار تحقيق فُتحَ في باريس بتهمة القتل غير العمد، حيث كان ثلاثة فرنسيين بين عداد القتلى. خلال مدة أسبوع، جمعوا عيّنات حول الحفرة وداخلها، وكتبوا في تقريرهم أنّهم: «يفترضون أنّ الحريق بدأ حوالي الساعة ٥,٣٠ مساءً في المنطقة الشمالية من العنبر رقم ١٢». إنهم يرجّحون فرضيّة الحادث، لكنهم لا يستبعدون وجود نيّة جرميّة: «لا يمكننا أن نجزم أيّ الفرضيّتين تسبّبت باندلاع الحريق». من بين الحجج المُساقة: «تلحيم الباب، أو عطل كهربائي، أو عقب سيجارة، أو عمل خبيث عن طريق سكب مادة تُسرّع الاشتعال، أو حريق في كومة قمامة». في المقابل: «ولأنّ الانفجارَين سبقهما حريق، تُستبعد فرضية الصواريخ أو العبوة الناسفة باعتبارها مصدرًا للتفجير. فالصواريخ والعبوات الناسفة كانت ستتسبَّب على الفور بحدوث انفجارٍ لا حريقٍ».

فرضيّة لقمان سليم السوريّة

أرسَل مكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي محقِّقيه. ما الذي استنتجوه؟ جزموا أنّ ما انفجر يوم ٤ آب هو ٥٥٠ طنًّا فقط من نيترات الأمونيوم. فأين تبخّرتْ كميّة ال ٢٢٠٠ طن؟ هل احترقت؟ قام الغوّاصون الفرنسيون بانتشال كتل من نيترات الأمونيوم من قاع البحر. «عندما يحدث حريق لا انفجار، تتحلّل المادة المحترقة بشكل أسرع» يقول بريان كاستنر، خبير المتفجرات في منظمة العفو الدولية، ويتابع: «الجُسَيمات متناثرة في كل مكان».

هناك احتمال آخر: «سرقة» الكميّة الضائعة. فمِن السهولة بمكان «التصرّف» في جزء من الحمولة، قبل وصولها أو بعده إلى العنبر رقم ١٢.

يقول الصحافي رياض قبيسي: «هناك عدة مؤشّرات تدفعني إلى الاعتقاد بأنها «فُقدت». «قيل لنا إنه تم تفريغ البضائع بليلة واحدة. بعملية حسابية بسيطة يبدو الأمر مستحيلًا. كان من الممكن أن تُفرّغ النيترات في ثمانٍ وأربعين ساعة. ثمّ إنّ تخزين ٢٧٥٠ كيسًا بِزِنة طن على هذا الرصيف الضيق لا يمتّ إلى الواقع بِصلة».

عُرف أنّ دولة جارة لِلُبنان تَستخدم النيترات على نطاق واسع، لكنها لا تستطيع استيراده بسبب العقوبات الدولية. منذ عام ٢٠١٣، استخدمت سوريا سلاحًا جديدًا: البرميل المتفجر. جرى تطوير هذه القنبلة البدائية في «مركز البحوث والدراسات العلمية»، وهو ما يطلق عليه اسم «مختبر الأهوال»، وقد استُخدمت هذه القنبلة البدائية حين رُميت في العام التالي من المروحيّات لسحق المدن المتمرّدة. مِمَّ يتكوّن هذا السلاح؟ من ديزل، وخردة معدنية، ومن... نيترات الأمونيوم.

لا يوجد دليلٌ حسّيّ يشير إلى تورط سوريا. هي قرائن متفرّقة تفضي إلى

هـذا الاسـتنتاج. أوائـل آب ٢٠٢٠، كَشـف تَجمُّـع مـن الصحفيـين الاسـتقصائيين العاملـين عـلى جمْـعِ أدلّـةٍ حـول الجريمـة المنظّمـة والفسـاد، أن صاحـب سـفينة «روسـوس» هـو القـبرصيّ شـارالمبوس مانـولي، وليـس الـروسيّ المزعـوم غريشوشـكين الـذي اسـتأجرها فقـط. وعندمـا وصلَـت إلى بـيروت كان عقـد الإيجـار قـد انتهـى. حـين قامـت السـفينة بالرحلـة إلى مرفـأ بـيروت كان مالكها مانـولي مَدينًـا بمبلـغ مليـون دولار، رهـن سـفينته لبنـك الـشرق الأوسـط الفيـدرالي (أف. ب. أم. إي)، وهـو مـصرف فرَضَـت عليـه وزارة الخزانـة الأميركيـة عقوبـات في عـام ٢٠١٤، بتهمـة غسـل الأمـوال لمصلحـة حـزب اللـه ومركـزِ البحـوث والدراسـات العلميـة بدمشـق.

هـل كانـت سـفينة «روسـوس» متجهـة فعـلًا إلى جنـوب إفريقيـا؟ نظـرًا إلى حالتهـا المُزْرِيَـة، مـن المرجّـح أن سـلطات قنـاة السـويس لم تكـن لِتَسـمح لهـا بالعبـور. ولِكـون عقـد الإيجـار المـبرم مـع إيغـور غريتشوشـكين وصـل إلى نهايتـه، لـن تتمكّـن ـ بحسـب موقـع ميغافـون اللبنـاني ـ مـن تجـاوز البحـر الأبيـض المتوسـط. في الأول مـن تشريـن الثـاني ٢٠١٢ رسـت «روسـوس» في مينـاء طرطـوس السـوري، حيـث شـيّدت قاعـدة بَحْريـة روسـية. يقـول الصحـافيّ جوناثـان داغـر: «لم تمكـث السـفينة أكـثر مـن خمـس سـاعات في المرفـأ. مـاذا عـن حمولتهـا؟ مـن يـدري؟».

لم يشـترِ الموزمبيقيّـون نيـترات الأمونيـوم التـي وصلـت إلى بـيروت. تَبـيَّن أن المشـتري هـو شركـة «سـافارو التجاريـة»، شركـة وهميـة عـلى رأسـها مديـرة شـكليّة. يقـول محامـي ضحايـا المرفـأ نـصري ديـاب: «عندمـا تيقّنَّـا أن هـذه الشركـة مسـجلة في السـجل التجـاري بلنـدن، رفعنـا دعـوى أمـام القضـاء البريطـاني». وفي الأول مـن شـباط، أدانـت المحكمـة العليـا في لنـدن الشركـة المسـؤولة عـن الأضرار الناجمـة عـن الانفجـار. هـذا والمُدَّعُـون يحاولون كشـف هويـة أصحابهـا الحقيقيـين. أهـي مصادفـةٌ أخـرى أن يكـون عنـوان سـافارو البريطـانيّ منـذ ٢٥ حزيـران ٢٠١١، ١٠ شـارع جريـت راسـل، ٢٠١١، هـو نفسـه عنـوان شرِكَتَـي «هيسـكو» و«آي كيـه بتروليـوم الصناعيـة»، وهـما شركتـان

هندسيتان يملكهما كلٌّ من جورج حسواني وعماد خوري؟ رَجُلَا الأعمال كلاهما يحمل الجنسيّتين السوريّة والروسيّة، وكلاهما فرضت عليه الولايات المتحدة عقوبات بسبب دعمه لآلة حرب الرئيس بشّار الأسد.

يُعتبرُ لقمان سليم مِن أوائل مَن أدانوا النظامَ السوري وحليفَه اللبناني حزب الله. مساء يوم الانفجار، قفز على دراجة نارية واتجه نحو الميناء. أراد أن يرى ويفهم قبل أن يُعلِّق. في الأسابيع التالية، قام بتوثيق ما قرأ. منذ عقدَيْن أرشَفَ الحروب والجرائم، فالنسيان برأيه هو أُمُّ الآفات.

الأوضاع تزداد قتامةً. اقترحَت عليه مونيكا، زوجتُه، السفر إلى ألمانيا، فرفض. قالت: «أَصَرّ على البقاء. فما يحدث في السياسة غير مسبوق ولو كانت حياته في خطر». عام ٢٠١٩، استفاق ليجد تهديدات بالقتل معلّقة على أبواب دارته.

يوم ١٥ كانون الثاني ٢٠٢١، خلال مقابلة مع قناة الحدث السعودية حلّل واتَّهم. في ٣١ كانون الثاني، اشتعلت وسائل التواصل ضدّه متهمة إيّاه بالعمالة. يشير نصري مسرة، عالم الاجتماع المتخصّص بوسائل التواصل الاجتماعيّة، في دراسة[٢] عن اغتيال لقمان سليم المعنوي، نشرَتها مؤسّسة سمير قصير، إلى أنه: «إنْ نظرنا إلى الأسماء المزيفة وكميّة إعادة التغريد، نتيقّن أنّ حملة منسقة شُنّت ضدّه». في ٣ شباط، غادر بيروت لتناول الغداء مع صديقَين في نيحا الجنوب. بحسب كاميرات مراقبة مختلفة تبعَتْه خمس سيارات. مساءً وهو يغادر نيحا، جرى اختطافه واقتياده إلى العدّوسيّة، حيث وُجد صباح اليوم التالي جثّة.

كما حدث في أغلب الاغتيالات، لم يُحْمَ مسرحُ الجريمة. تقول مونيكا بورغمان عن لقائها مع المحقّقين: «سُئلتُ أسئلة شخصية، مِن مِثل: هل

(٢) نصري مسرّة، دراسة ميدانيّة لشبكات البغض التي حاصرت لقمان سليم قبل اغتياله وبعده، مؤسسة سمير قصير، ٢٠٢١. بالعربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة. انظر:

هـو عـلى خـلاف مـع أحـد؟ هـل هـو مِثـلي؟ انتحـاريّ؟! لم يسـألني أحـد عـن التهديـدات التـي تلقَّاهـا». حـين ذاع خـبر اغتيالـه نـشر جـواد نصر اللـه، نجـل زعيـم حزب اللـه، تغريـدةً، سرعـان مـا حذفهـا. وقـد ورد فيهـا الآتي: «خسـارة البعـض هـي في الحقيقـة ربـح ولطـف غـير محسـوب. #بـلا أسـف». بعـد أن عُلّقـت ملصقـات تهديـده بكاتـم الصـوت، كتـب لقـمان بيانًـا في كانـون الأول ٢٠١٩، حَمّـل فيـه زعيمَـي الحزبـين الشـيعيَّيْن حسـن نصر اللـه ونبيـه بـري، مسـؤولية مـا قـد يحـدث لـه، وختمـه بـ«اللهـم قـد بَلّغْـت».

صاحب سفينة «روسوس» هو القبرصيّ شارالمبوس مانولي، وليس الروسيّ المزعوم غريشوشكين الذي استأجرها فقط. وحين وصلَت إلى بيروت كان عقد الإيجار قد انتهى. يوم قامت السفينة بالرحلة إلى مرفأ بيروت كان مالكها مانولي مَدينًا بمبلغ مليون دولار، فرهن سفينته لبنك الشرق الأوسط الفيدرالي (أف. ب. أم. إي)، وهو مصرف فرَضَت عليه وزارة الخزانة الأميركية عقوبات في عام ٢٠١٤، بتهمة غسل الأموال لمصلحة حزب الله ومركزِ البحوث والدراسات العلمية بدمشق...

كريستوف بولتانسكي، صحفي وأديب فرنسي، نالت روايته **المخبأ** جائزة فيمينا عام ٢٠١٥